

حضارة؟.. أم حضارات؟؟

الدكتور محمد عمارة

دار الوفاء

عالمنا

حضارة؟.. أم حضارات؟؟

الطبعة الأولى

١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م



دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - المنصورة ش.م.م

الإدارة والمطابع: المنصورة ش الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب

ت ٣٤٢٧٢١ / ٣٥٦٢٢٠ / ٣٥٦٢٣٠

المكتبة: أمام كلية الطب ت ٣٥٦٢٣٣ ص.ب ٢٣٠ فاكس ٣٥٩٧٧٨

عالمنا

حضارة ؟.. أم حضارات ؟؟

الدكتور محمد عمارة



تمهيد
فى السؤال

قد لا يختلف الكثيرون فى الإجابة على هذا السؤال ، إن هم انطلقوا إلى الإجابة عنه من « الواقع » المتجسد فى معالم التمايز الحضارى ، تلك التى ترسم « حدودا » لـ « الأوطان الحضارية » ، هى الأكثر رسوخا والأطول أعمارا ـ فى حياة الأمم والشعوب ـ من تلك التى تمثل « الحدود السياسية » للدول والأمبراطوريات .

فتميز اليابان كحضارة ذات هوية خاصة تميز أمتها ، عبر تاريخها الطويل ، حقيقة لا يختلف عليها السائحون ، فضلا عن أهل الذكر والاختصاص !..

وتميز الهند كحضارة مالكة لهوية حضارية خاصة ، أمر لا مجال فيه للاختلاف .. وكذلك الحال بالنسبة للصين ، كحضارة متميزة ، إن فى تراثها وتاريخها القديم ، أو فى نهضتها المعاصرة التى طوعت «الماركسية الغربية » ، لتراثها الحضارى الخاص !..

أما تميز الغرب كحضارة فهو حقيقة يجمع عليها الدارسون ، تستوى فى ذلك التميز حقب جاهليتها اليونانية القديمة ، ونهضتها

الأوروبية الحديثة ، والواقع المعاصر الذى تعيش فيه..

لكن جدلا كثيرا ، وخلافا كبيرا تشهدهما ساحات الفكر ، فى الإجابة على هذا السؤال ، إذا كان الحديث عن علاقة حضارتنا الإسلامية بالحضارة الغربية على وجه التحديد ؟!..

هنا ، وفى هذا الميدان من ميادين الدراسات الحضارية ، تبرز دعاوى « واحدية الحضارة » ، ونعتها بـ « العالمية » ، وبـ « الإنسانية » ، الأمر الذى يعنى إنكار تميز الحضارة الإسلامية عن الحضارة الغربية بالسمات والقسمات التى تضمن لها هوية وخصوصية ترسم لأمتها ولعالمها حدودا حضارية يجب الحفاظ عليها وحمايتها من الغزو والمسخ والنسخ والتشويه والاقتلاع !..

فلا أحد ــ من الغربيين أو المتغربين ــ يجادل فى تميزنا ، حضاريا ، عن اليابان والهند والصين ، ولا فى تميز تلك الحضارات الشرقية العريقة عن الحضارة الغربية ، وإنما يثور الجدل ويحتدم الخلاف إذا كان طرفا المقارنة وقطبا العلاقة : حضارة الغرب وحضارة الإسلام ؟!..

الأمر الذى يشى بدور المنافسة والصراع التاريخى بين الحضارتين فى « تزييف الوعى » لدى منكرى التمايز الحضارى فى هذه الحالة وحدها !. وينبئ عن مقاصد الهيمنة التى تقف وراء دعوى هذه «الواحدية الحضارية » فى هذا المقام بالذات ؟!..

فحضارات الشرق الأقصى ــ اليابانية ، والصينية ، والهندية ــ هى حضارات محلية ، لم تمتلك أى منها ــ عبر تاريخها ــ إمكانات

المنافسة العالمية ، والعطاء والتأثير والقبول خارج الحدود ، ومن ثم فهى لا تمثل ، حتى فى مراحل نهوض أممها ، خصما حضاريا للحضارة الغربية ، التى تهيمن على مقدرات عالمنا منذ عدة قرون !..

بينما الحال فى علاقة الحضارتين الإسلامية والغربية ليس كذلك ، فلكليهما إمكانات التأثير والعطاء والقبول خارج الحدود .. وبينهما تدافع بلغ حد الصراع عبر حقب طويلة من التاريخ ؟! الأمر الذى سيجعل البحث ـ فى هذه الصفحات ـ عن إجابة علمية لهذا السؤل: عالمنا : حضارة واحدة ؟ أم تعددية حضارية ؟؟ وقفا على إجابة الغربيين ـ ومعهم المتغربون ! ـ وعلى إجابة الإسلاميين ، التابعة من رؤية الإسلام للعلاقة بين الحضارات..

الجواب الغربى

إذا شئنا « جوابا غربيا » على هذا السؤال ــ عالمنا : حضارة ؟ أم حضارات ؟؟ ــ فإن فى الفكر السائد لدى مختلف ميادين الفكر الغربى ما يجسد لنا معالم هذا الجواب .

● فمن نماذج فكر « السياسة ــ الحربية » و « الحرب ــ السياسية » نختار كلمات « جيانى ديميكليس » ــ عندما كان رئيسا للمجلس الوزارى الأوربى ــ فلقد سأله مراسل « النيوزويك » الأمريكية عن مبررات بقاء حلف الأطلنطى بعد زوال المواجهة بين الغرب الليبرالى والمعسكر الذى كان اشتراكيا ؟ . فأجاب :

« صحيح أن المواجهة مع الشيوعية لم تعد قائمة ، إلا أن ثمة مواجهة أخرى يمكن أن تحل محلها بين العالم الغربى والعالم الإسلامى » . .

فلما عاد مراسل « النيوزويك » ليسأله :

ــ وكيف يمكن تجنب تلك المواجهة المحتملة ؟ .

قال : « ينبغى أن تحل أوربا مشاكلها ليصبح النموذج الغربى أكثر جاذبية وقبولا من جانب الآخرين فى مختلف أنحاء العالم ، وإذا فشلنا فى تعميم ذلك النموذج الغربى فإن العالم سيصبح مكانا فى منتهى

الخطورة[1] » ؟!..

فهنا إجابة تهدد بمحاربة مختلف أنحاء العالم ــ وفى المقدمة «العالم الإسلامى» ــ إذا لم يتم « **تعميم وقبول النموذج الغربى** » ؟!..

● ومن نماذج « فكر : السياسة الاستراتيجية » و « الاستراتيجية ــ السياسية » نختار رؤية الرئيس الأمريكى الأسبق « ريتشارد نيكسون » ، تلك التى حدد فيها الخيارات النهضوية القائمة أمام العالم الإسلامى المعاصر . فلقد حذر من :

أ ــ خيار « الرجعية : صاحبة الأيدلوجية القومية المتعصبة » المتعلقة بـ « وهم الوحدة العربية » ؟! .

ب ــ وخيار الأصوليين الإسلاميين : **المصممين على استرجاع الحضارة الإسلامية السابقة عن طريق بعث الماضى ، وتطبيق الشريعة الإسلامية ، والمناداة بأن الإسلام دين ودولة ، واتخاذ الماضى هداية للمستقبل** » .

ودعا السياسة الأمريكية والغربية إلى أن يلعبا « دورا رئيسيا فى تحديد الخيار الذى تختاره الشعوب المسلمة » ؟! وهو خيار :

جـ ــ التقدم : ونموذجه « تركيا ــ العلمانية ــ فى انحيازها نحو الغرب ، وسعيها **إلى ربط المسلمين بالعالم المتحضر ــ (الغرب) ــ من الناحية السياسية والاقتصادية** » ، **وإلا فإن « ردود فعل خطيرة**

---

(١) (النيوزويك) ــ يوليو سنة ١٩٩٠م ــ نقلا عن (الأهرام) ــ ١٧ يوليو ١٩٩٠م .

ستحدث فى العالم » إذا لم ينجح الغرب فى دفع المسلمين إلى هذا الخيار [1] ؟!..

فهى ــ مرة ثانية ــ إجابة غربية تهدد « بردود فعل عالمية خطيرة » إذا لم « يختر » المسلمون « الخيار الغربى » ــ العلمانى ــ الذى يربطهم بالغرب سياسيا واقتصاديا ؟!..

● ومن نماذج تحليلات « خبراء الفكر والثقافة » ، التى تفسر هذا الموقف « السياسى ، والحربى ، والاستراتيجى » للحضارة الغربية من هذه القضية ــ قضية « الواحدية الحضارية » ؟ أو « التعددية الحضارية» ؟؟ ــ نختار رؤية مجلة « شؤون دولية » ، التى تصدرها جامعة « كمبردج » ، والتى جاءت بالملف الذى خصصته للإسلام والمسيحية والماركسية ، وفيها قال خبراء الفكر والثقافة عن الإسلام إنه الهدف الأول للحرب الغربية ، لا لشىء إلا لتحديه الخضوع للنموذج الغربى : ورفضه التنازل عن خصوصيته المستعصية على العلمنة الغربية ؟! .وبنص كلمات هؤلاء الخبراء :

ــ « يتساءل أوروبيون كثيرون عما إذا كان يمكن جعل الإسلام يقبل بقواعد المجتمع العلمانى ؟ أم أنه على قدر من الرسوخ فى المجال السياسى والاجتماعى يجعله رافضا لأى تمييز بين : ما لله وما لقيصر » ؟!..

ــ « إن النظرية التى يعتنقها علماء الاجتماع » والتى تقول : إن

(1) نيكسون (الفرصة السانحة) ص ٢٨ ، ٤٠ ، ١٤١ ترجمة أحمد صدقى مراد ، طبعة القاهرة ــ دار الهلال ١٩٩٢م.

المجتمع الصناعي والعلمي الحديث بقوض الإيمان الديني ـ مقولة العلمنة ـ صالحة على العموم ، لكن عالم الإسلام استثناء مدهش وتام جدا من هذا .. إنه لم تتم أى علمنة في عالم الإسلام . إن الإسلام مقاوم للعلمنة ، في ظل مختلف النظم السياسية ، وسيطرته الآن على المؤمنين به أقوى مما كانت من مائة سنة ، ولقد مكنت التقاليد المحلية الإسلامية العالم الإسلامي من الإفلات من محاكاة الغرب ، تلك المحاكاة المذلة ، التي تضفي الطابع المثالي على النموذج الغربي . فباسم الإيمان المحلي يتم الإصلاح ، دون علمنة » ؟

ـ « إن الإسلام هو الثقافة الوحيدة القادرة على توجيه تحد فعلى وحقيقي لمجتمعات الغرب ، ولذلك فإنه من بين الثقافات الموجودة في الجنوب ، هو الهدف المباشر للحملة الغربية الجديدة »[1]...

فنحن « مرة ثالثة » أمام إجابة غربية ، تفسر لماذا هذا الرفض الغربي لتميز الخيار الحضاري الإسلامي عن النموذج ، ولماذا يتخذ الغرب الإسلام وأمته وعالمه هدفا مباشرا للحملة الغربية الجديدة ؟!..

تلك هي إجابات الفكر السائد بمختلف دوائر الفكر الغربي عن هذا السؤال ، حضارة واحدة ؟ .. أم تعددية في الحضارات ؟ .

وفي هذه الإجابات تفسير للممارسات الدامية ، والتطبيقات المأساوية التي يصنعها الغرب بالإسلام والمسلمين وقضاياهم وحقوقهم على امتداد الأوطان والقارات ؟! .

---

(١) « شؤون دولية » مجلد ٦٧ ـ عدد ١ ـ يناير ١٩٩١ م

الجواب الإسلامى

أما إذا نحن التمسنا إجابة إسلامية على هذا السؤال ، حضارة واحدة لهذا الكوكب الذى نعيش فيه ؟ أم تعددية فى حضارات أممه وشعوبه ؟؟ .. فإننا نجد للإسلام موقفا حاسما وواضحا يؤكد على أن التعددية هى الأصل والقاعدة ، بل إنه ليجعلها القانون الإلهى والسنة الإلهية ـ الأزلية والأبدية ـ فى ميادين الاجتماع الإنسانى وشؤون العمران البشرى ، التى لا تبديل لها ولا تحويل فيها .. فالوحدانية خصيصة للخالق الواحد ، سبحانه وتعالى .. أما ما عدا الخالق ، من عوالم الكون الطبيعى وشؤون الاجتماع البشرى ، وميادين الحضارة والعمران ، فقائمة على التعددية ، كسنة جارية وحاكمة فى كل هذه الميادين ..

ففى القوميات والأجناس ، هناك تعددية يتحدث عنها القرآن الكريم باعتبارها « آية » من آيات الله فى الاجتماع الإنسانى : ﴿ ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين ﴾ [الروم : ٢٢] .

وفى الشعوب والقبائل « هناك تعددية » ، تثمر التمايز ، الذى يدعو القرآن إلى توظيفه فى إقامة علاقات التعارف بين المتمايزين : ﴿ يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن

أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾ [الحجرات : ١٣] .

وفي الشرائع والمناهج ، ومن ثم في الحضارات ، هناك تعددية يراها القرآن الكريم الأصل الدائم والقاعدة الأبدية ، والسنة الإلهية ، التي هي الحافز للتنافس في الخيرات ، والاستباق في الطيبات ، والسبب في التدافع الذي يقوم ويرشد مسارات أمم الحضارات على دروب التقدم والارتقاء ، فهي المصدر والباعث على حيوية الإبداع الذي لا سبيل إليه إذا غاب التمايز وطمست الخصوصية بين الحضارات : ﴿ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين . إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم ﴾ [هود : ١١٨ ، ١١٩] . حتى ليتحدث المفسرون عن هذا الاختلاف وتلك التعددية باعتبارها علة الخلق ، فيقولون : إن المعنى : وللاختلاف خلقهم [1] !.

﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ﴾ [المائدة : ٤٨] . فالتعددية هي الحافز على امتحانات وابتلاءات المنافسة والاستباق في ميادين الإبداع بين الفرقاء المتمايزين في الشرائع والمناهج والحضارات .

وعلى دروب مسارات استباق الخيرات ، يكون التدافع — وليس الصراع — السبيل الإسلامي لترشيد المسارات وضبط الاستباق ، حتى يظل في إطار المثل التي صاغها الإسلام ، بل إن غياب التعددية ، ومن ثم غياب هذا التدافع الحضاري والحراك الاجتماعي إنما يعني

---

(١) القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) جـ ٩ ص ١١٤ ، ١١٥ . طبعة دار الكتب المصرية

الموات المتمثل فى غيبة إبداع الخصوصيات : ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ﴾ [البقرة : ٢٥١] ، ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ﴾ [الحج : ٤٠] .

تلك هى إجابة الإسلام ، التى انحازت إلى التعددية فى الأجناس والأقوام والشعوب والقبائل والشرائع والمناهج والحضارات

وهى الإجابة التى تجسدت فى دولة تعددت رعيتها فى الديانات والمذاهب ، وشعوبها فى اللغات والقوميات . فلم تقف هذه الإجابة المتميزة عند حدود الفكر النظرى ، وإنما تجسدت واقعا حضاريا معيشا ، بينما كان الرفض الغربى للتعددية هو الآخر تاريخا حضاريا ، رفض التعددية حتى فى المذاهب داخل النصرانية الواحدة ، وليس فقط التعددية فى الديانات ؟!..

تعددية: العموم .. والخصوص

وهذه التعددية فى الحضارات الإنسانية، التى يؤسسها الإسلام على سنة التعددية فى الشرائع والمناهج بين الأمم، لا تعنى: « قطيعة ـ التضاد »، كما أنها لا تعنى: « تماثل ـ التبعية » و « تطابق ـ التقليد » .. وإنما هى « تميز » يقف بين « الواحدية الحضارية » وبين « التضاد المطلق بين الحضارات » . إنه « تميز » يقوم على ساقين اثنين .. ساق « العموم » القائم فيما هو مشترك إنسانى عام فى حقائق وقوانين العلوم الموضوعية والطبيعية والمحايدة، التى لا تتغاير حقائقها وقوانينها بتغاير عقائد وحضارات الباحثين فيها، وذلك لثبات موضوعات هذه العلوم، وتماثل ثمرات تجاربها، مهما تعددت وتغيرت هويات القائمين بها .

ففى هذه الميادين نكون بإزاء « مشترك إنسانى عام »، يمثل رصيدا « للعموم » الجامع بين مختلف الحضارات الإنسانية، عبر الزمان والمكان..

أما الساق الثانية التى يقوم عليها « تميز » العموم والخصوص بين الحضارات، فهى ساق الخصوصيات الحضارية فى الهويات والثقافات والفلسفات .. وميادين هذه الخصوصيات هى العلوم الإنسانية، التى تتغاير بتغاير موضوعاتها النفوس الإنسانية، والتى تتلون وفق المواريث

والعقائد والفلسفات والعادات والأعراف والتقاليد..

وإذا كانت التجارب المادية تتكرر على « المادة » فتثمر ذات الحقيقة ونفس القانون ، رغم التكرار ، ورغم تغاير هويات القائمين على هذه التجارب ، لثبات وحياد « المادة » موضوع التجارب .. فإن التجربة الفنية أو الشعرية أو الروحية ، وكذلك الاجتهاد فى العلوم الإنسانية ، يستحيل التماثل فيها عند تكرارها حتى لدى الإنسان الواحد ، لأن موضوعاتها ـ النفس الإنسانية ـ ليس لها ثبات ولا حياد المادة الصماء.

فعلى « العموم » ـ الذى يمثل نطاق المشترك الإنسانى العام فى الفكر الإنسانى ـ .. وعلى « الخصوص » ـ الذى يمثل التعددية فى الهويات والثقافات والإنسانيات ـ يقوم « التمايز » الممثل لرؤية الإسلام لمعيار « التعارف » بين الحضارات المتعددة للأمم والشعوب ..

نماذج شاهدة

وإذا كان الناس لا يختلفون على عموم الحقائق والقوانين التى تمثل ثمرات الإبداع الإنسانى فى ميادين العلوم الطبيعية والموضوعية والمحايدة .. من طب ، وهندسة ، وطبيعة ، وكيمياء ، وفلك ، ورياضيات ، ونبات ، وحيوان ، وفى ميادين التجارب الإنسانية التى هى أقرب إلى الآليات والأوعية والمؤسسات ، التى توظف فى خدمات المقاصد والفلسفات والغايات ، فإن خلافا كبيرا يقوم بين تيارات فكرية متعددة حول التمايز الحضارى فى ميادين الثقافات والهويات والإنسانيات .. آدابا وفنونا ، وسياسة ، واجتماعا ، واقتصادا ، وعقائد ، ورؤى لمكانة الإنسان فى الكون ، وعلاقته بالأغيار ، وفلسفته فى حكمة الوجود،وقصة البدء،والمسيرة،والمصير .. إلخ

فمن الناس من يرى موضوعات العلوم الإنسانية ، كموضوعات العلوم الطبيعية ، محايدة ، وصالحة للدرس بالمناهج الموحدة ، كما هو الحال فى مناهج دراسة موضوعات العلوم الطبيعية . الأمر الذى يثمر حقائق وقوانين واحدة ، تجعل ميادين هذه العلوم الإنسانية مما هو « مشترك إنسانى عام » لا تتغاير فيه ولا تتمايز الحضارات ، وهؤلاء هم دعاة الواحدية الحضارية . الذين عبر عن فكرهم الدكتور طه حسين (١٣٠٦ ــ ١٣٩٣ هـ / ١٨٨٩ ــ ١٩٧٣ م) فى مرحلة انبهاره بالحضارة الغربية ــ فقال بواحدية «العقل» بين الشرق والغرب؛

لأن العقل الشرقي هو كالعقل الأوربي، مرده إلى عناصر ثلاث :

ــ حضارة اليونان وما فيها من أدب وفلسفة وفن

ــ وحضارة الرومان وما فيها من سياسة وفقه .

ــ والمسيحية وما فيها من دعوة إلى الخير وحث على الإحسان .

وبعد أن أنكر تمايز الحضارات في الإنسانيات ، وزعم وحدتها في الأدب والفلسفة والفن والسياسة والفقه والشرائع .. رتب على ذلك واحدية العقل الشرقي والعقل الأوربي ، فقال : « لقد كانت مصر دائما جزءا من أوربا ، في كل ما يتصل بالحياة العقلية والثقافية على اختلاف فروعها وألوانها .... » .

ثم مضى فرفض أن يكون ظهور الإسلام ونزول القرآن قد أحدثا تميزا للعقل الإسلامي الشرقي عن العقل النصراني الغربي ، فقال : وكما لم يغير الإنجيل من الطابع اليوناني للعقل الأوربي ، فكذلك القرآن ، لم يغير من الطابع اليوناني للعقل الشرقي ، لأن القرآن « إنما جاء متمما ومصدقا لما في الإنجيل » ؟! .

ثم انطلق من ميدان الحكم على الماضي والتراث ، ليعمم هذا القول على الحاضر والمستقبل ، فدعا الناس إلى أن يسلكوا في النهضة ويختاروا للتقدم نفس الخيار الغربي ، زاعما أنه خيار وحيد ، وسبيل واحدة لا تعدد فيها ولا تميز .. فقال : « إن السبيل واضحة بينة مستقيمة لا لبس فيها ولا عوج ولا التواء ، وهي واحدة فذة ليس لها تعدد ، وهي : أن نسير سيرة الأوربيين ونسلك طريقهم ، لنكون لهم أندادا ، ولنكون لهم شركاء في الحضارة ، خيرها وشرها ، حلوها

ومرها ، ما يُحَبُّ منها وما يُكْرَه ، ما يُحْمَدُ منها وما يُعَاب »[1] ؟!..

ذلك هو مذهب المفكرين للتعددية الحضارية ، القائلين بالوحدة الحضارية في الإنسانيات كما في الطبيعيات ، وعندهم أن التمايز قائم في درجات ارتقاء الأمم على السلم الواحد للحضارة الواحدة ــ وليس تمايزا في الهويات والخصوصيات بين حضارات إنسانية متعددة ومتمايزة..

ولأن هذه القضية فيها هذا الخلاف، ولأن القول بهذه « الواحدية الحضارية » ، يؤدى ــ في رأينا ــ ليس فقط إلى الخروج عما جعله القرآن الكريم آية من آيات الله ، سبحانه وتعالى ، في اختلاف الناس في الشرائع والمناهج ، ومن ثم في الحضارات ، بل وإلى الخروج على حقائق الفكر التي تبلغ مرتبة البدهيات ، وأيضا المعاندة والإنكار لواقع تاريخ الحضارات..

لما كان هذا هو الرأى في دعوى القائلين « بواحدية الحضارة » ، حق علينا أن نضرب الأمثال الشاهدة على صدق الرؤية الإسلامية ، المؤسسة على وجود « **تعددية التمايز** » بين الحضارات ، كموقف وسطى بين دعاة « **تغاير ــ التضاد** » بين الحضارات ، وبين دعاة «**تماثل ــ الوحدة** » فيما يسمونها الحضارة « العالمية » و « الإنسانية » الواحدة..

ومن بين الأمثال الكثيرة الشاهدة على صدق هذه الرؤية الإسلامية للتعددية الحضارية ، نختار بعضها ، من مثل :

---

(١) (مستقبل الثقافة في مصر) جـ ١ ص ٢١ ــ ٤٥ . طبعة القاهرة ١٩٣٨م .

١ ــ الاشتراك فى « الإيمان بالخالق » ..
والخصوصية فى « آفاق تدبيره »

فى كل الحضارات التاريخية منها والمعاصرة ــ وإذا نحن استثنينا القلة المادية المنكرة وجود خالق لهذا الوجود ــ هناك اشتراك بين جميع أمم تلك الحضارات فى الإيمان بخالق لهذا الوجود ، ومع هذا الاشتراك هناك خصوصيات حضارية فى تصور كل حضارة من الحضارات لنطاق وآفاق عمل وفعل وتدبير الذات الإلهية الخالقة لهذا الوجود ..

أ ــ فالتصور الوثنى الجاهلى ، لم ينكر وجود خالق لهذا الوجود، ولكنه وقف ــ فى تصوره لعمل هذا الخالق ــ عند حدود «الخلق» ، ثم أشرك معه شركاء آخرين ، زعم أنهم الوسائط المدبرة لشؤون الحياة الدنيا ، يفزع إليهم الإنسان الجاهلى عند الملمات..

ولذلك ، لم ينع القرآن على التصور الجاهلى إنكار الخالق للوجود،وإنما نعى عليه الوقوف بعمل هذا الخالق عند حدود « الخلق» دون آفاق التدبير فى كل ميادين الوجود وسائر شؤون العمران . لقد أقرهم على نطاق الاشتراك ــ الإيمان بخالق للوجود ــ ونعى عليهم الإيمان بالشركاء الذين زعموا اختصاصهم، دون الله ، بالتدبير لشؤون هذه الحياة : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر

الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون . الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له إن الله بكل شيء عليم ﴾[العنكبوت : ٦١، ٦٢] .

﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون . لله ما فى السموات والأرض إن الله هو الغنى الحميد ﴾ [لقمان : ٢٥ ، ٢٦] .

﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادنى برحمة هل هن ممسكات رحمته قل حسبى الله عليه يتوكل المتوكلون ﴾[الزمر : ٣٨] .

﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم . الذى جعل لكم الأرض مهدا وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون . والذى نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتا كذلك تخرجون . والذى خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون . لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين . وإنا إلى ربنا لمنقلبون . وجعلوا له من عباده جزءا إن الإنسان لكفور مبين ﴾ [الزخرف : ٩ ـ ١٥] .

ففى هذا التصور الجاهلى للذات الإلهية ، اشتراك مع التصورات الأخرى فى الإيمان بخالق لهذا الوجود . . وخصوصية جاهلية ، تقف بفعل الخالق عند حدود الخلق ، وتشرك معه الشركاء فى التدبير والتلبية لحاجات الإنسان فى هذا الوجود ! . .

ب ــ وفي التصور الأرسطي اليوناني للذات الإلهية شبه من هذا التصور الوثني الجاهلي .. فالله هو الخالق لهذا العالم ، لكنه خلقه ثم تركه يعمل بالأسباب المادية الذاتية المركبة فيه .. فعلاقة الخالق بالوجود « علاقة منطقية » كعلاقة المقدمة بالنتيجة ، وليست علاقة الراعي المدبر لشؤون هذا الوجود ؟!..

فهنا ــ في هذا التصور الأرسطي للذات الإلهية ــ اشتراك مع التصورات الأخرى في الإيمان بخالق للكون .. وتميز في علاقة الخالق بالخلق ، وفي نطاق عمل وتدبير الله في المخلوقات..

جـ ــ وشبيه بهذه التصورات لنطاق عمل الذات الإلهية ، التصور النصراني ، الذي يدع ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله ، لأنه يحبس تدبير الذات الإلهية عن العمران البشري ، ويحصره في شؤون مملكة السماء !..

د ــ بل إننا نستطيع أن نسلك التصور العلماني في إطار هذه التصورات ، فهو ــ عند أغلب العلمانيين ــ لا ينكر الله كخالق للكون ولا الدين كعقيدة وشعائر وعبادات ، ولكنه يحرر العمران الإنساني ــ في السياسة والاجتماع والاقتصاد ومناهج البحث ــ من « الشريعة الإلهية » وضوابط التدبير الإلهي لهذه الميادين..

ففي كل هذه التصورات « اشتراك .. وعموم » مع التصور الديني الحق ، الذي تفرد به القرآن الكريم .. وفيها « تميز وخصوصية » فارقة بينها وبين التصور الإسلامي لنطاق عمل وفعل وتدبير الذات الإلهية في هذا الوجود..

هـ ــ يتميز التصور القرآني لنطاق عمل وفعل وتدبير الذات الإلهية ، عندما لا يقف بهذا النطاق عند حدود « الخلق » فقط لهذا الوجود ، وإنما يجعل الله ، سبحانه وتعالى ، الراعي والمدبر والحاكم ــ بقضائه وشرعه ــ لكل شئون الحياة ، وسائر ميادين العمران.

فهو « الخالق » و هو « مدبر الأمر » : ﴿ إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون ﴾

[يونس : ٣]

وله ، سبحانه وتعالى « الخلق » و « الأمر » ــ أى التدبير ــ ﴿ ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ﴾ [الأعراف : ٥٤] .

وهو باسط الرزق ومقدره : ﴿ الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له إن الله بكل شيء عليم ﴾ [العنكبوت : ٦٢] .

وهو الذى « خلق » ، وهو الذى « هدى » : ﴿ قال فمن ربكما يا موسى . قال ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴾

[طه: ٤٩ ، ٥٠]

وهكذا تشترك الحضارات فى « عموم » الإيمان بخالق لهذا الوجود ، فى ذات الوقت الذى تتميز فيه تصوراتها فى « خصوصية » نطاق وآفاق عمل وتدبير الخالق في هذا الوجود ، الأمر الذى يؤكد حقيقة التمايز الحضارى ، والخصوصية الحضارية ، والتعددية فى الحضارات.

٢ ــ الاشتراك فى « إنسانية الحضارات » ..
والخصوصية فى
« تصورات مكانة الإنسان فى هذا الكون »

كل الحضارات « إنسانية » بمعنى أنها صناعة الإنسان وإبداعه عندما يرتقى فى سلم التمدن والاستقرار ، وفى هذه الحقيقة تشترك كل الحضارات..

لكن التصور الفلسفى لمكانة الإنسان فى الكون يختلف من حضارة إلى أخرى ، إلى الحد الذى يصبح فيه التميز فى هذا التصور من الخصوصيات التى تتميز بها حضارة عن أخرى ، رغم أن جميعها تشترك فى كونها من صنع هذا الإنسان.

أ ــ ففى فلسفة الحضارة الهندية ــ النرفانا Nirvana ــ ومعها بعض مذاهب التصوف الفلسفى ــ الغنوصية ، الباطنية ، العرفانية ــ تهميش للإنسان ، يجعله الحقير ، المجبر ، الذى لا سبيل لخلاصه إلا بالفناء فى المطلق أو فى ذات « الحق ــ الله »..

ب ــ وفى الفكر المادى ــ الذى طبع الحضارة الغربية منذ جاهليتها اليونانية وحتى نهضتها الأوربية الحديثة ــ تأليه للإنسان ، يجعل منه سيد الكون ، الذى يستطيع ــ بالحرية والاختيار ــ أن يحل

الحرام الديني ، ويحرم الحلال الديني - في شؤون العمران الدنيوي ، كحق من حقوقه الطبيعية : التي لا تلتزم بشريعة من شرائع السماء في بناء هذا العمران..

جـ - أما في الرؤية الإسلامية لمكانة الإنسان في هذا الكون ، فإن مكانته هي مكانة الخليفة لله ، سبحانه وتعالى ، في عمارة هذه الأرض ، والخليفة حر وقادر ومريد وفاعل ، لكن في حدود بنود عقد وعهد الاستخلاف ، الذي هو الشريعة الإلهية . فالإنسان سيد في الكون ، وليس سيد الكون ؛ لأنه خليفة لسيد الكون ، وبعبارة الإمام محمد عبده (١٢٦٥ - ١٣٢٣هـ / ١٨٤٩ - ١٩٠٥م) : « فإنه - الإنسان - عبد الله وحده ، وسيد لكل شيء بعده ! ».

وهذه الرؤية الإسلامية لمكانة الإنسان في الكون ، والتي تمثل خصوصية حضارية للحضارة الإسلامية تتميز بها عن الحضارات الإنسانية الأخرى ، كما أنها ثمرة للوسطية الإسلامية ، التي تقف بمكان الخليفة بين « التأليه » و « التهميش » ، فإنها ثمرة من ثمرات التصور الإسلامي لنطاق عمل وتدبير الذات الإلهية . فلما كان الله المدبر للخلق - وليس فقط الخالق للوجود - كان لتدبيره مدخل في الرعاية والترشيد للإنسان ، وهذا المدخل هو عقد وعهد الاستخلاف، الذي جعل الإنسان حاملا للأمانة - فهو ليس المهمل المجبر المهمش - كما أنه ليس المنفلت من إطار التدبير الإلهي ، إنه الخليفة لخالق ومدبر هذا الوجود..

وهذا التصور الإسلامي للإنسان كخليفة عن الله ، مع تصور الذات الإلهية كمدبر للوجود الذي خلقه : هما وجها عملة واحدة ،

لعلها أخص ما يميز الحضارة الإسلامية عن غيرها من الحضارات ؛ فعنهما تتفرع خصوصيات أخرى كثيرة تشهد للحضارة الإسلامية بتميز الهوية وخصوصية الفلسفة عند المقارنة بالحضارات الأخرى..

ولفكرة الخلافة والاستخلاف هذه امتدادات وتجليات كثيرة في ميدان التميز الحضارى لحضارتنا الإسلامية . نجدها في الفلسفة الإسلامية المتميزة لعلاقة الإنسان بالثروات والأموال .. فهو المالك المجازى ، مالك المنفعة ، المحكومة حريته في الحيازة والتصرف ببنود عقد وعهد استخلاف المالك الحقيقى ، مالك الرقبة في الأموال ، سبحانه وتعالى : ﴿ وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ﴾ [الحديد : ٧] .

وهو حاكم ، لكنه مكلف ــ في عهد الاستخلاف ــ أن يحكم وفق بنود هذا العهد ﴿ وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك ﴾ [المائدة : ٤٩] ، ﴿ يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ﴾ [ص : ٢٦] .

وله حقوق ، لكنها محكومة بحقوق الله ،سبحانه وتعالى . وله مصالح ، لكنها يجب أن تكون شرعية معتبرة .. وله حرية ، لكنها محكومة بإطار عقد وعهد الاستخلاف .. والدولة التى يقيمها هى دولة الخلافة عن الأمة،محكومة بسلطة الأمة ،التى هى ــ أى الأمة ــ مستخلفة لله ، محكومة سلطاتها بإطار الشريعة الإلهية .

فهذا الموقع ــ موقع الخليفة ــ الذى أراده الله للإنسان في عمارة هذه الأرض ، هو الذى يعبر عن خصوصية الرؤية الإسلامية ،

والتزامه فى بناء الحضارة الإسلامية هو الذى يجعل هذا الإنسان : إنسانا ، وربانيا فى ذات الوقت ، وهو الذى يحقق المعنى الذى لم تدركه الملائكة من ذاتها عندما خلق الله هذا الإنسان : ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون ﴾ [البقرة : ٣٠] .

وكما أن تحقيق فلسفة الاستخلاف ، وضوابط الخلافة ، يجعل الإنسان الخليفة ، إنسانا وربانيا فى ذات الوقت ، فإن ذلك التحقيق يجعل من صناعته للحضارة ، حضارة إنسانية ، وإسلامية أيضا . وبهذا تتميز حضارة الاستخلاف الإسلامية عن غيرها من الحضارات التى « تهمشه » أو « تؤلهه » . .

٣ ـ الاشتراك فى « الدين » ..
والخصوصية فى « مصدره » وفى « آفاقه »

وكل الحضارات الإنسانية تشترك فى التدين بالديانات ، بل إن الشريحة التى ألحدت ، وأحلت « المادة » محل « الله » ، قد جعلت من الفلسفة المادية عقيدة ودينا ؟!

لكن الحضارات تتمايز فى رؤيتها لمصدر الدين ، فهناك حضارات الديانات الوضعية ، غير السماوية ـ مثل ديانات الشرق الأقصى ـ ومعها فى هذه الفلسفة تقف « الوضعية الغربية » بمذاهبها المتعددة ، فلقد زعمت أن الدين ككل ألوان الفكر وأنساقه ، إنما هو إفراز بشرى ، وثمرة من ثمرات العقل الإنسانى ، بل وقالت: إنه الممثل للفكر الإنسانى فى طور طفولة العقل البشرى ، الذى ارتقى بعد الطفولة إلى مرحلة الميتافيزيقا ، والإيمان بما وراء الطبيعة ، ثم لما نضج أصبح وضعيا ، لا يرى علما حقيقيا ولا معرفة حقيقية إلا إذا كانا من ثمرات التجارب الحسية والعقل المجرد انطلاقا من حقائق الكون المادى المحسوس . فهذه الحضارات عرفت الدين ، لكنها جعلته « وضعا إنسانيا » ، وليس « وضعا إلهيا » ووحيا سماويا !.

وحتى الحضارات ، أو التصورات الدينية التى اشتركت فى الإيمان بالوضع الإلهى للدين ، تراها قد تميزت فى تحديد آفاق عمل هذا

الدين ، فالذين جعلوا الدين عقيدة خاصة بين الفرد وخالقه ، وشعائر عبادية محبوسة في الهياكل والصوامع ، مع عزله عن أن يضبط ويدبر ويرشد كل ميادين العمران الفكري منها والتطبيقي ، قد تميزت رؤية حضارتهم لآفاق عمل الدين ، ولنطاق التدين عن الرؤية الإسلامية لهذه الآفاق . .

فالدين في الرؤية الإسلامية ــ فضلا عن أنه وضع إلهي ووحي سماوي ــ هو الروح السارية في كل مجالات العمل الإنساني وسائر مناحي الحياة ، يضبط علاقة الفرد بربه وبمحيطه ، وبأهله وشعبه وأمته ، وبالإنسانية جمعاء ، كما يضبط علاقة الدنيا بالآخرة ، والعمران بالقيم ، والوسائل بالحكم والغايات . . والسياسة والاجتماع والاقتصاد ومناهج البحث ونظريات المعرفة بالفلسفات والأخلاقيات . .

وهكذا تتميز الحضارة الإسلامية ــ عندما تكون حقا إسلامية ــ عن الحضارات الأخرى المشاركة لها في التدين بهذه الرؤية الخاصة لمصدر الدين ، ولنطاق وآفاق التدين في الحياة . .

٤ ـ الاشتراك فى « العقل » .. والخصوصية فى « ماهية العقلانية »

بدون « العقل » يستحيل أن يكون هناك إنجاز رشيد .. وكل الحضارات الإنسانية هى ثمرات لإبداع الإنسان العاقل.

لكن، رغم هذا الاشتراك فى العقلانية بين كل الحضارات الإنسانية، فإن هناك تمايزا وخصوصية لحضارة عن أخرى فى مقام العقل، وفى مكانته من سبل المعرفة الأخرى، ومن ثم فى ماهية العقلانية. فالحضارات المشتركة فى الاحتكام إلى العقل تتفاوت فى درجات هذا الاحتكام، وفى مدى الاقتصار عليه.

أ ـ ففى المذاهب « الباطنية ـ الغنوصية ـ العرفانية » يهمش العقل وتضمر العقلانية، بل ويهمش النقل وكل سبل المعرفة الأخرى، ويكاد الوجدان والحدس والعرفان الباطنى والفيض والإلهام والوهب أن تستأثر بالمعارف جميعا، ولذلك استحال بناء حضارة على « العرفان »، وإن أمكن أن يكون سبيلا لخلاص آحاد الناس؛ لأن الحضارة بناء جمعى، بينما العرفان تجربة شديدة التفرد والاختصاص!.

ب ـ وفى المذاهب المادية والوضعية هناك إعلاء لمقام العقل إلى

درجة « الغرور العقلاني » !؟ . فالاحتكام إلى براهينه مع ثمرات التجارب الحسية هما سبيلا المعرفة المعترف بهما ، وما لا تعقله العقول وتدركه الحواس لا يرقى لمرتبة حقائق المعارف والعلوم .

جـ ــ أما في الرؤية الإسلامية ، التي أصبغت بفلسفتها الحضارة الإسلامية ، فإن للعقلانية ماهية متميزة تمـاً كمـا .

لقد تبلورت العقلانية الغربية في طورها اليوناني عندما لم يكن هناك نقل ولا وحي يجاورها ، فجاءت عقلانية متحررة من النقل ومن وحي السماء ، منفردة بتحصيل المعارف وحقائق الأشياء .. بينما تبلورت العقلانية الإسلامية انطلاقاً من الوحي القرآني ، وفي خضم الدفاع عن الدين ، فجاءت عقلانية مؤمنة لإنسان مؤمن ، يدرك أن ملكاته ــ ومنها العقل ــ هي نسبية إذا ما قورنت بالعلم الإلهي الكلي والمحيط .. ومن هنا جاءت العقلانية الإسلامية : تقرأ النقل بالعقل ، وتحكم العقل بالنقل ، لأنها قد جعلت النقل مع العقل ، والحواس ، والوجدان ، سبلاً أربعة للمعرفة ، تتكامل في تحقيق الهداية للإنسان، وجعلت مصادر المعرفة كتابي الوحي المقروء والكون المنظور ، وليس فقط كتاب الكون المنظور ، كما هو الحال في الوضعية الغربية .. فللمعرفة مصدران ، ولسبلها أربع هدايات ، الأمر الذي عصم العقلانية الإسلامية من الصراع الذي اكتوت الحضارة الغربية بناره ، بين العقلانية وبين اللاهوت ، وهو الصراع الذي جعل العقلانية الغربية الحديثة نقضاً للدين ، بعد أن كانت في حقبتها اليونانية خلواً من الدين . بينما ظلت العقلانية الإسلامية على مر تاريخنا الحضاري ،

الأخت الرضيعة للشريعة الدينية ، لأنها واحدة من الهدايات ، وليست بديلا ولا نقيضا لهدايات الدين ..

بهذه العقلانية الإسلامية تميزت الحضارة الإسلامية ، رغم اشتراك سائر الحضارات فى الاحتكام إلى العقل المبدع لهذه الحضارات !

٥ ــ الاشتراك فى « السببية » ..
والخصوصية فى « مرجعيتها »

وإذا كانت الحضارات كلها قد اشتركت فى الإيمان « بالأسباب »، وبالعلاقة بين « الأسباب » و « المُسَبَّبات » ، فإن مناهجها ومذاهبها وفلسفاتها قد تمايزت فى مرجعية هذه الأسباب وفى طبيعة العلاقة بينها وبين المُسَبَّبات.

أ ــ فهناك أهل العرفان ، الذين يجعلون « الله ــ الحق » ، سبحانه وتعالى ، سببا أوحد لا سبب سواه فى وجود كل المُسَبَّبات ، وفيما يتولد عنها ، بل لقد ذهبوا مع هذا الدرب إلى حيث أنكروا الوجود الحقيقى عما عدا الله ، سبحانه وتعالى !

ب ــ وهناك الحضارات المادية والمذاهب الوضعية التى ترجع «المُسَبَّبات » إلى الأسباب المادية المركبة فى المادة وقواها وظواهرها ، وفى الإنسان والاجتماع البشرى ، وهم يرون فيها « أسبابا ذاتية » وليست مخلوقة لخالق وراءها ومفارق لمادتها ، إما لأنهم يجحدون وجود هذا الخالق ، أو يتصورونه على الصورة التى تصورها عليها أرسطو (٣٨٤ ــ ٣٢٢ ق.م) محركا أولا ، حرك العالم ثم تركه لقواه وأسبابه الذاتية الفاعلة وحدها فيه ،دون علاقة تدبير بين الخالق وبين هذه الأسباب.

جـ - أما الموقف الإسلامي من مرجعية السببية ، فهو الذى يؤمن بوجود الأسباب ، وبقيام العلاقة بينها وبين المُسَبَّبات ، مع الإيمان بأن جميع هذه الأسباب المركبة في المادة وقواها وظواهرها وفى الإنسان والاجتماع البشرى هي جميعها مخلوقة أيضا لخالق هذه الأشياء ، وأن عملها في مُسَبَّباتها لا يعني انتفاء قدرة الموجد الأول والأوحد لها مع إيقاف عملها ، إذا هو ، سبحانه ، شاء إخراج الأمر من « العادة » إلى « خارق العادة » لحكمة يريدها الله..

لقد اتفق على هذا التصور للسببية مفكرو الإسلام ، الذين اصطبغت بفكرهم حضارتنا الإسلامية.

فالغزالي (٤٥٠ ـ ٥٠٥ هـ / ١٠٥٨ ـ ١١١١م) الذي يتهمه البعض بإنكار السببية ، والعلاقة الضرورية بين الأسباب والمسببات ، هو القائل : « إننا نسلم أن النار خلقت خلقة إذا لاقاها قطنتان متماثلتان أحرقتهما ، ولم تفرق بينهما إذا تماثلتا من كل وجه ولكننا مع هذا ، نُجوِّز أن يلقى شخص في النار فلا يحترق ، إما بتغير صفة النار أو بتغير صفة الشخص ، فيحدث من الله تعالى أو من الملائكة صفة في النار تقصر سخونتها على جسمها بحيث لا تتعداها ، وتبقى معها سخونتها وتكون على صورة النار حقيقتها ، ولكن لا تتعدى سخونتها وآثرها . أو يحدث في بدن الشخص صفة ، ولا يخرجه عن كونه لحما وعظما فيدفع أثر النار ، فإنا نرى من يطلى نفسه بالطلق « مادة نباتية » .. ثم يقعد في تنور موقد فإنه لا يتأثر بالنار ، والذي لم يشاهد ذلك ينكره ، وإنكار الخصم اشتمال القدرة على إثبات صفة من الصفات في النار أو البدن تمنع الاحتراق كإنكار

من لم يشاهد المطلق وأثره ، وفي مقدورات الله تعالى غرائب وعجائب ، ونحن لم نشاهد جميعها ، فلا ينبغي أن ينكر إمكانها ويحكم باستحالتها »[1] .

فإنكاره لم يكن للسببية ، ولا لعلاقة الضرورة بين الأسباب والمسبَّبات ، وإنما كان للسببية المادية ، التي تنكر ــ بزعم اختصية ــ قدرة مسبب الأسباب على خرق « العادة » بخلق أسباب أخرى غير المعتادة !.

وابن رشد (٥٢٠ ــ ٥٩٥ هـ / ١١٢٦ ــ ١١٩٨ م) الذي اتهمه البعض بالانحياز للسببية المادية ، هو الذي يقول : « ولا ينبغي أن يُشك في أن هذه الموجودات قد يفعل بعضها بعضنا ومن بعض ، وأنها ليست مكتفية بأنفسها في هذا الفاعل ، بل الفاعل من خارج ، فعله شرط في فعلها ، بل في وجودها ، فضلا عن فعلها »[2]

فكلاهما ــ الغزالي وابن رشد ــ على عكس ما توهم الذين ظنوا اختلافهما في هذه القضية ــ يقولان بالسببية ، وبعلاقة الضرورة بين الأسباب والمُسَبَّبات ، مع رفض السببية المادية ، التي تنكر قدرة وفعل مُسَبِّب الأسباب في إيقاف وتبديل فعل الأسباب في المُسَبَّبات ..

وهذا المذهب الإسلامي الجامع بين فعل السبب ، المودع في الأشياء ــ الطبائع ــ وبين قدرة خالق الأسباب والمُسَبَّبات على خرق

---

(١) (تهافت الفلاسفة) ص ٦٧، ٦٨. طبعة القاهرة ١٩٠٣م

(٢) (تهافت التهافت) ص ١٢٤ طبعة القاهرة ١٩٠٣م

العادة ، وتبديل الأسباب ـ أي إيجاد عناصر سببية جديدة ـ هذا المذهب الإسلامي ، المتميز عن مذهب الذين أنكروا السببية وعن مذهب الذين قالوا بالسببية المادية ، هو الذي عبر عنه الجاحظ (١٦٣ ـ ٢٥٥ هـ / ٧٨٠ ـ ٨٦٩ م) عندما قال: إن « التوحيد » في الألوهية، هو الذي يعني الإيمان بخالق هذا الكون ، لا ينفي وجود الأسباب الفاعلة في الأشياء « الطبائع » ، وقد يكون تصور الأمر صعبا على غير أهله ، لكنه حق ممكن التصور ! والمصيب هو الذي يجمع تحقيق التوحيد وإعطاء الطبائع حقها من الأعمال ، ومن زعم أن التوحيد لا يصلح إلا بإبطال حقائق الطبائع ، فقد حمل عجزه على الكلام في التوحيد ، وإنما يأس منك الملحد إذا لم يدعك التوفر على التوحيد إلى بخس حقوق الطبائع ؛ لأن من رفع أعمالها رفع أعيانها ، وإذا كانت الأعيان هي الدالة على الله ، فرفعت الدليل ، فقد أبطلت المدلول عليه [1]

فمع اشتراك كل الحضارات في الإيمان بالسببية نراها قد توزعتها مذاهب متمايزة في مرجعية الأسباب ، وفي طبيعة العلاقة بين الأسباب والمُسبَّبات ، فكانت السببية مشتركا إنسانيا عاما .. وكانت مذاهبها عن الخصوصيات الحضارية التي تتمايز فيها وبها الحضارات . .

---

(١) (كتاب الحيوان) جـ٢ ص ١٣٤ ، ١٣٥ ، تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون ، طبعة القاهرة .

شهادة التاريخ

وإذا كانت هذه النماذج والأمثال كافية لتشهد على حقيقة «التمايز والخصوصية الحضارية» ، التى تؤكد على تعدد الحضارات فى عالمنا ، وعلى أن هذه التعددية هى تعددية تمايز ، لا تضاد ، لأن بين الحضارات المتميزة «مشتركا إنسانيًا عامًا» ، تمثله حقائق وقوانين العلوم الطبيعية والمحايدة والموضوعية لثبات موضوعات هذه العلوم ، كما أن بينها هذا التمايز فى معارف العلوم الإنسانية ، ذات الموضوعات المتغايرة بتغاير مواريث وفلسفات وعقائد أمم هذه الحضارات..

إذا شهدت هذه النماذج بصدق هذا المعنى ، فإن التاريخ شاهد على أن هذا المعنى قد غدا قانونا عاملا فى كل مراحل التقاء وتفاعل سائر الحضارات..

• فالمسلمون انفتحوا على الحضارة الهندية القديمة .. لكنهم أخذوا فلكها وحسابها ، ولم يأخذوا فلسفتها ، وهم انفتحوا على الحضارة الفارسية القديمة ،ومع ذلك وجدناهم يأخذون منها «التراتيب الإدارية» ، فى الوقت الذى وجهوا فيه النقد والنقض لمذاهب الفرس وفلسفاتهم ودياناتهم..

وهم صنعوا ذلك مع التراث اليونانى ، عندما احتفوا بعلومه

الطبيعية ، مع رفضهم لإلهياته وآدابه التي ارتبطت بتلك الإلهيات.

لقد كان قانوناً حكم التفاعل وتفاعل الحضارات، عرفه المسلمون منذ عهد الفاروق عمر بن الخطاب ، الذي أخذ عن الرومان « تدوين الدواوين » ـ كتجربة إنسانية محايدة ، ووعاء من أوعية التنظيم الإدارى ـ في الوقت الذى رفض فيه « القانون الرومانى » ، لاختلاف فلسفته في التشريع عن فلسفة الشريعة الإسلامية في فقه المعاملات!

● والغربيون ، عندما انفتحوا على الحضارة الإسلامية إبان نهضتهم الحديثة أخذوا علومها الطبيعية ، ومنهجها التجريبى ، وتراثهم اليونانى الذى حفظته وطورته المسلمون ، وفي ذات الوقت رفضوا توحيد حضارة التوحيد ، ووسطيتها ، وقيمها ، ومثلها ، بل لقد قسموا ابن رشد قسمين ، فأخذوا منه الشارح الأكبر لأرسطو ـ لأن فيه تراثهم ـ ورفضوا فيه الفقيه المالكى ، والمتكلم الإسلامى ، وصاحب العقلانية الإسلامية التي آخت ما بين الحكمة والشريعة!

● وعندما أخذت حضارتنا الحديثة تلتمس سبل النهضة ـ قبل مرحلة الاستعمار ـ أرسلت البعثات إلى أوربا ، لتدرس علوم التمدن المدنى البشرية ، أى العلوم الحكمية ، المفيدة في تمدن الواقع . ولم يذهب مبعوث واحد ليدرس العقائد والفلسفات والإنسانيات ـ على عكس ما انقلب إليه الحال في ظل الاستعمار ، الذى أمطرنا بإنسانيات الغرب ، وحجب عنا مصادر القوة المتمثلة في العلوم الطبيعية والدقيقة؟!.

ولقد عبر رفاعة الطهطاوى (١٢١٦ ـ ١٢٩٠ هـ / ١٨٠١ ـ

١٨٧٣ م) عن الوعى بهذه الحقيقة ، وعن الالتزام بهذا القانون ـ قانون التمايز بين الحضارات المتعددة في الإنسانيات ، والتي تشترك جميعا في حقائق وقوانين العلوم الموضوعية والمحايدة ـ عبر عن ذلك عندما رفض علمانية الغرب ولادينيته ووضعيته التي اعتمدت « العقل المجرد » و « النواميس الطبيعية » وحدهما سبيلاً للمعرفة والتحسين والتقبيح ، وأكد على التزامه بالمنهاج الإسلامي الذي يجعل « الشرع » مع « العقل » و « النواميس الطبيعية » طرقا للتحسين والتقبيح . فبلاد الإفرنج ـ عنده ـ مشحونة بكثير من الفواحش والبدع والضلالات ، وإن كانت من أحكم بلاد الدنيا وديار العلوم البرانية ، وليس لأهاليها من دين النصرانية سوى الاسم فقط ، وهم من الفرق المحسنة والمقبحة بالعقل ، أو من الإباحيين الذين يقولون : إن كل عمل يأذن فيه العقل صواب ، ولذلك فهم لا يصدقون بشيء مما في كتب أهل الكتاب لخروجه عن الأمور الطبيعية !

وبعد أن حدد الطهطاوي ملامح الوضعية الغربية ، أدانها ، وزكى النموذج الإسلامي الذي ميز حضارتنا عندما أقام بنيانها على « الشرع » و « العقل » معا ، فقال : « إن **تحسين النواميس الطبيعية لا يعتد به إلا إذا قرره الشارع** . والتكاليف الشرعية والسياسية ، التي عليها مدار نظام العالم ، مؤسسة على التكاليف العقلية الصحيحة الخالية عن الموانع والشبهات ؛ **لأن الشريعة والسياسة تنبنيان على الحكمة المعقولة لنا أو التعبدية التي يعلم حكمتها المولى سبحانه ،** وليس لنا أن نعتمد على ما يحسنه العقل أو يقبحه إلا إذا ورد الشرع بتحسينه أو تقبيحه ، ولا عبرة بالنفوس القاصرة ، الذين حكموا

عقولهم بما اكتسبوه من الخواطر التى ركنوا إليها تحسينا وتقبيحا ، وظنوا أنهم فازوا بالمقصود بتعدى الحدود ! .

فينبغى تعليم النفوس السياسية بطرق الشرع لا بطرق العقول المجردة »[1] ! . .

هكذا شهدت الحقائق على وجود « المشترك الإنسانى العام » الجامع لكل الحضارات الإنسانية ، وعلى وجود « الخصوصيات الحضارية » المميزة لتمايز الحضارات ، وتعدديتها .

وهكذا شهد تاريخ التقاء وتفاعل الحضارات ، على ارتقاء هذه الحقيقة ، حقيقة تعدد الحضارات ـ تعدد تمايز لا تعدد تناقض وتنافر ـ إلى مرتبة « القانون » الذى يحكم التفاعل الصحى بين « الحضارات » وسقطت دعاوى « واحدية الحضارة » فى عالمنا ، تلك التى تخفى ـ أو تحاول أن تخفى ـ مقاصد الهيمنة وأغلال التبعية ومخاطر الاحتواء ، كما سقطت دعاوى الانغلاق والتناقض التام بين الحضارات فى كل الميادين . .

إن عالمنا يجب أن يكون « منتدى حضارات » ، تتفاعل جميعا من موقف وموقع الرائد المستقل ، الذى يصافح الدنيا دون أن يتنازل عن « بصمته » التى تميزه وهويته التى تحمل الجوهر والروح الحضارية الحافظة لتميزه عن الآخرين عبر الزمان والمكان .

---

(١) (الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوى) جـ٢ ص ١٥٩ ، ١٦ ، ٧٩ ، ٣٢ ، ٤٧٧ ، ٣٨٦ ، ٣٨٧ ، دراسة وتحقيق دكتور محمد عمارة ، طبعة بيروت ١٩٧٣م .

تلك هى الرؤية الإسلامية للإجابة على هذا السؤال :

عالمنا : حضارة واحدة ؟ أم تعددية فى الحضارات ؟؟ . والله من وراء القصد ، ومنه نستمد العون والتوفيق .

الفهرس

رقم الإيداع : ٩٦٢٦/ ١٩٩٦م
I.S.B.N:977-15-0170-4

هذا الكتاب

* نشأت العلمانية فى سياق التنوير الوضعى الغربى؛ لتمثل عزلا للسماء عن الأرض ، وتحريرا للاجتماع البشرى من ضوابط وحدود الشريعة الإلهية، وحصرا لمرجعية تدبير العالم فى الإنسان، باعتباره «السيد» فى تدبير عالمه ودنياه، فهى ثمرة من ثمرات عقلانية التنوير الوضعى، الذى أحل العقل والتجربة محل الله والدين .

إنها عزل السماء عن الأرض، والدين عن الدنيا، وإحلال الإنسان ـ فى تدبير العمران البشرى ـ محل الله !!

* ولقد انبهر البعض من مثقفينا المحدثين بالعلمانية الغربية فتبنوها ودعوا إلى سلوك طريقها فى نهضتنا ، كما حدث للغربيين فى نهضتهم . غير أن الفلسفة المتميزة للتشريع الإسلامى حالت بين المسلم وبين قبول العلمانية جملة وتفصيلا .

* وهذا الكتاب يبين فى عجالة ملابسات نشأة العلمانية ، وكيف وفدت إلينا ، ورفض التصور الإسلامى والأصول الإسلامية لها .

الناشر



دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع ـ المنصورة ش.م.م

الإدارة والمطابع : المنصورة ش الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب

ت ٣٤٧٢٧١ / ٣٥٦٢٢٠ / ٣٥٦٢٣

المكتبة : أمام كلية الطب ت ٣٤٧٤٢٣ ص ب ٢٣٠ فاكس ٣٥٩٧٧٨